دراسات

السيد محمد باقر الحكيم

رئيس المجلس الاعلى للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

الوحدة الدينية الخاتمة

تمهيد

من خلال الابحاث السابقة، يمكن ان نتبين ان المسيرة البشرية والمجتمع الانساني مر بعدة مراحل اساسية، كان للدين دور خاص فيها، يمكن الاشارة اليها بالعناوين التالية:

الاولى: الوحدة الفطرية، وهي: تلك المرحلة التي كانت تقوم العلاقات الاجتماعية فيها على اساس الفطرة الانسانية، وما اودعه الله سبحانه و تعالى في الانسان من توجهات ذاتية، وكان دور الدين فيها هو تأكيد هذه التوجهات والنوازع الانسانية وهدايتها.

الثانية: الاختلاف البدائي من خلال ما فرضته تطور الاوضاع الاجتماعية للانسان، من تزاحم في الغايات والرغبات، وحب للذات، وطغيان في السلوك، والذي ادى الى ظهور الشرك والوثنية البدائية، وهي حالة يؤرخ لهابظهور حالة المجتمع الانساني الاول.

الثالثة: الوحدة الدينية التي قامت على اساس العقيدة الدينية في الاله الواحد، والاخلاق والقيم، وتنظيم السلوك الانساني بالشريعة والقانون؛ وهي مرحلة قد نؤرخ لها بنوح (ع)، كمايبدو من القرآن الكريم عندما يتحدث عن شرع الدين

الـذي وصى به نوحاً(ع): «**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه...**»[1].

الـرابعة: الاختـلاف الثني الـذي تطـور وتجسـد بالظاهرة الفرعونية، حيث طـرح الانسـان نفسـه إلهاً مثلا اعلى للمجتمع الانساني يعبد من دون الله تعالى، ويصبح اطارا يصاغ المجتمع الانساني في حدوده وقيمه وتشريعاته.

وقد عرفنا خصائص التمزق والفرقة في المجتمع الفرعوني الذي يمثل مرحلة (الاختلاف الثاني)، وان الدين جاء في مرحلة متقدمة ـ ايضا ـ لمعالجة هذا النوع من الاختلاف.

الخـامسة: الوحـدة الدينية الاجتماعية، التي قامت على اساس العقيدة الالهية الـواحـدة والشريعة الربانية، مضـافاً إليهمـا عنصرين أسـاسيين جديدين، همـا: المـؤسسة الدينية، والامامة الدينية، حيث بدأت هذه الوحدة ـ على مايبدو ـ في زمن ابـراهيم(ع) الـذي اقام المؤسسات التوحيدية، وتمكن من احكامها وتثبيت دعـائمهـا في المجتمع الانساني مثل: (الكعبة الشريفة)، واماكن العبـادة الاخرى التي بقي منهـا (بيت المقـدس)، واسس الامامة الدينية، لقيادة المجتمع الانساني، حيث تكـاملت بصـورة واضحة في مـوسى(ع)، ومـا جاء على يده من تشريعات اجتماعية تمثل مشروعا للدولة والمجتمع والامة.

السـادسة: الاختـلاف في الدين وتفسيـره وفهمه وتطبيقه، وهي ظاهرة بارزة وواضحة في المجتمع الاسرائيلي وما تمثل به من اختلاف ونزاع وتفرق وتمزق، تحـدث عنـه القرآن الكريم بصورة واضحة ومفصلة. وكانت رسالة عيسى(ع) وما جرى له، وعليه وبعده، تجسيدا واضحا لهذه المرحلة من المجتمع الانساني.

السـابعة: الـوحـدة الدينية الخاتمة، التي قـامت على اسـاس وحـدة العقيـدة والامامة والدولة والامة والمجتمع، وهو ما جاءت به الرسالة الاسلامية الخاتمة.

وهـذه المـراحل السبع قـد تتـداخل في بعض ابعادهـا في الزمان او المكان، بحيث تبـدأ مـرحلة منها ولما تنته المرحلة السابقة، او تبقى بعض مخلفات وآثار وظـواهـر مـرحلة سابقة في ظـروف مـراحل لاحقة متطـورة، سـواء في جانب

الاختلاف او الوحدة.

ولكننا عندما ننظر الى المجتمع الانساني وتطور مسيرته التاريخية ونريد ان نؤرخ له من خلال القرآن الكريم، يمكن ان نلاحظ بوضوح ان المجتمع الانساني خضع في تاريخه لمعادلتين اساسيتين كان لهما تأثير في تطوره وتكامله، او تدهوره وتسافله من ناحية، وفي الظواهر التي اتسمت بها مسيرته من ناحية اخرى:

احدهما: معادلة الهوى والهداية الالهية من خلال الوحي الالهي (الرسالات الالهية).

وثانيهما: معادلة الوحدة والاختلاف بجميع مراحلها وصورها واشكالها، ونلاحظ - ايضا - ان كلا من هاتين المعادلتين وطرفيهما مترابطتان، لان الثانية تمثل الظهر للمعادلة الاولى، وكانا يمران بمراحل واشكال قد يجتمع بعضها الى جانب بعض، ولكنهما يتسمان في الوقت نفسه بالتطور والتكامل وتبادل التأثير فيهما، والسبب في كل ذلك هو ان الله سبحانه و تعالى جعل قانون الامتحان والابتلاء من القوانين الثابتة في مسيرة البشرية، وعنصرا من عناصر تكاملها، ومن ثم فالهوى والاختلاف لابد ان يكونا خطين ثابتين موجودين في هذه المسيرة، وكلما تطورا تدخلت الهداية الالهي لمعالجتهما بما يتناسب مع هذا التطور، والى جانبهما الهداية الالهية وما اراده الله تعالى برحمته من الوحدة وعناصرها في المجتمع الانساني، هذا ما اكده القرآن الكريم في قوله تعالى: **«ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولايزالون مختلفين * إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين»**.(٢)

وقد كانت الرسالة الخاتمة مشتملة على عناصر الوحدة الاساسية التي تنتهي بالانسان الى الهدف الكامل من وجود البشرية على الارض، وهي الوحدة الخارجية الاجتماعية التي وعد الله سبحانه و تعالى بها المؤمنين الصالحين: **«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امناً يعبدونني لايشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون»**.(٣)

وهـذه المرحلة، وهي: مرحلة الامام المهدي المنتظر(ع)، واليوم الموعود به الناس على لسان الانبياء والمرسلين(ع).

ونحتـاج من اجل تـوضيح هـذه الصورة في الرسالة الخاتمة ان نشير الى عدة امور:

الاول: في بيان العناصر الاساسية في هذه الوحدة الدينية الخاتمة.

الثاني: في المنهج والطريق الـذي ذكـره القـرآن الكريم للـوصـول الى هـذه الوحدة.

الثالث: بيان الخصائص التي تتميز بها الوحدة الحقيقية الخارجية عن الوحدة الدينية الخاتمة.

أسس الوحدة الالهية

بعـد ان عرفنـا خصـائص التمـزق والفـرقة في المجتمع الفـرعوني، ومرحلة الاختـلاف في الدين، يحسن بنـا ان نتناول بالبحث العناصر الرئيسية التي اهتمت بها الرسالة الخاتمة الالهية؛ لمعالجة ظاهرة الاختلاف والخصائص التي تميزت بها عن الرسالات الالهية السابقة.

فقـد اهتمت الرسـالة الخاتمة الالهية بعدة عناصر واسس رئيسية، حاولت من خلالهـا معـالجة ظاهرة الاختلاف في المجتمع الانساني من اجل عودته الى حالة المجتمع الواحد، ويمكن تلخيص هذه الاسس بالعناصر الاربعة التالية:

الاول: عقيدة التوحيد الالهي.

الثـاني: القيم والمبـادىء التـوحيدية المنبثقة عن تلك العقيـدة، والتي يقـوم على اساسها المجتمع الانساني.

الثالث: الشريعة الواحدة الالهية.

الرابع: الامة والجماعة الواحدة التي تمثل مادة المجتمع الانساني.

الخـامس: الامـامة والـدولة والنظـام الـواحـد الـذي يمثل الاطـار للمجتمع الانساني.

العنصر الاول ـ عقيدة التوحيد

عرفنا سابقا ان العقيدة التوحيدية كانت ولازالت تمثل عنصرا مهما في تحقيق الوحدة الانسانية على مر العصور والمراحل الانسانية؛ ولكن الرسالة الخاتمة اعطت هذه العقيدة التوحيدية ابعادا جديدة، سواء في الوضوح او التفاصيل او الشكل او الضمانات او التأثير في الكون والمجتمع الانساني، او العلاقة بهما، بحيث جعلتها عقيدة راسخة واضحة ومؤثرة في الحياة الاجتماعية الانسانية، وقادرة على معالجة الكثير من اسباب الاختلاف ومستوياته؛ ويمكن ان نلاحظ ذلك في النقاط التالية:

الاولى: الوضوح والشمول في العقيدة التوحيدية في منظومة متكاملة من الاله المتصف بصفات الجمال والجلال، والمسمى بالاسماء الحسنى الذي تتمثل علاقته بالملائكة والرسل بعلاقة الربوبية والعبودية، والذي ينزل الكتب على رسله عن طريق الوحي الالهي، ذي الصور والاشكال المتعددة، وهذا الاله هو مركز النظام التكويني والتشريعي معا، ويرتبطان به بصورة دائمة ومستمرة. كما ان المخلوقات جميعا (الناس والكون بكل وجوده) تنتسب اليه، وتخضع لارادته، وتخشع لعظمته، وتسبّح بحمده.

وهو يدعو الى اقامة الحق والعدل بين الناس، ويأخذ للمظلوم ظلامته من الظالم، وينتقم للمظلومين من الظالمين، وقد اعد لذلك يوم الجزاء والحساب والدار الآخرة، حيث كان الحكم والفصل النهائي فيها لهذا الاله الواحد (مالك يوم الدين) والحياة الاخرى هي: الحياة الحقيقية للانسان، وفيها تتحقق الاهداف المنشودة، في الراحة والاستقرار والكمالات الالهية.

وان هذه العقيدة التوحيدية تترسخ وتتكامل بالالتزام بالشريعة الالهية والحدود الشرعية، وبدون ذلك تتناقص وتضعف حتى تتحول الى الشرك والنفاق.

ان هذه الصورة الواضحة (الوحدوية) البيّنة الجلية بكل هذه التفاصيل لانجد مثيلا لها في الرسالات الالهية السابقة؛ وان كانت اصولها وجذورها وبعض

معالمها موجودة ثابتة.

ومن هذا المنطلق ينبه القرآن الكريم ويؤكد في آيات عديدة: خطورة ظاهرة التفرق في الدين والتحريف الذي تعرض له بسبب الاختلاف فيه من قبل الجماعات التي التزمت به وآمنت به؛ لأن ذلك قد يؤدي الى فقدان العقيدة نفسها، وان الالتزام بالصراط المستقيم، الذي جاء به الاسلام، وتقوى الله هو المنقذ من هذا الاختلاف والتفرق.

«وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصّكم به لعلكم تتقون».(٤)

«شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه...».(٥)

ومن هذا المنطلق نجد القرآن الكريم، اكد على هذا المفهوم العقيدي في تصوره للوحدة داخل المجتمع الاسلامي ووضع صورتها في هذا الاطار، لانها وحدة حقيقية يمكنها ان تحفظ للمسيرة البشرية قدرتها وطاقاتها وتكاملها في جميع الابعاد، وان تكون هذه الوحدة والاتفاق في الله ومن اجل الله وفي سبيل الله.

الثانية: المحافظة على المضمون العقائدي بهذه التفاصيل من الضياع والتحريف، من خلال النص القرآني المنزل من قبل الله تعالى، والذي وضعت ضمانات لحفظه من التحريف والتغيير والزيادة والنقصان: «انا **نحن نزلنا الذكر وانا له لحٰفظون**»(٦)، كما وضعت ضمانات لجعله ميسوراً لدى عامة المسلمين، بحيث يصبح الخط الثقافي العام الثابت فيهم.

وندرك اهمية ذلك في معالجة الاختلاف وايجاد الوحدة، اذا اخذنابنظر الاعتبار ما تعرضت له الرسالات الالهية من تحريف خطير في جانب العقيدة، بسبب التزوير والضياع الذي تعرضت له الكتب السماوية السابقة؛ وحجب معرفتها عن عموم الناس وحصرها بطبقة معينة هي طبقة الاحبار والرهبان، الذين كانوا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، وهو ما عرفناه في المرحلة السابقة، اي: في مرحلة

الاختلاف في الدين.

الثالثة: تشخيص المرجعية الدينية الفكرية في عرض وفهم الاسلام المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية، وكذلك معرفته وتفسيره؛ وهم: (اهل البيت(ع)) الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا: **«... انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا»**[٧]، وقد اكد النبي(ص) في نصوص كثيرة واضحة هذه المرجعية الدينية الفكرية، منها: حديث الثقلين المتواتر: **«اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا احدهما اعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي اهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»**[٨]، كما كان الخلفاء والمسلمون يرجعون اليهم عمليا في الكثير من الشؤون الدينية.[٩]

الرابعة: تشريع الشعائر الاسلامية العبادية بصورة محددة وواضحة، وهو ما امتاز به الاسلام عن غيره من الرسالات الالهية كالصلاة اليومية، وصوم شهر رمضان، واحياء الحج الابراهيمي، وتوضيح صيغته التوحيدية، والانفاق في سبيل الله (الزكاة والخمس)، بحيث اصبحت هذه العبادات ـ التي كان لها اصول في الرسالات الالهية السابقة ـ بصيغها المحددة الموقوفة من اركان الاسلام، ولها ادوار اجتماعية مهمة ومعنوية توحيدية.

الخامسة: اعطاء العقيدة والايمان بعدا عمليا اجتماعيا في حركة الانسان اليومية ـ كما اشرنا الى ذلك ـ بحيث يتكامل الايمان من خلال السلوك، وينعكس الايمان به على سلوك الانسان واعماله ونشاطه.

وقد امتد هذاالتطور العقيدي في الرسالة الاسلامية على مستوى الوضوح والتفاصيل الذي شاهدنا بعض معالمه في عقيدة التوحيد، الى باقي مفردات العقيدة الالهية وهي: الرسول، حيث نجد تفاصيل في شخصية الرسول(ص) وطبيعة علاقته بالله تعالى وكيفية صلته وارتباطه بالرسالة التي يحملها، وبالناس الذين يدعو هم اليها، ومسؤولياته تجاهها، ومواصفاته وغير ذلك من الشؤون التي لانجدها في الرسالات السابقة.

كما اصبحت قضية (الامامة) ومسؤوليتها في هذه الرسالة اكثر وضوحا وذات تجسيد عملي، حيث يقوم الرسول الامام ـ الى جانب ابلاغ الرسالة ـ بمسؤولية اخرى وهي: مسؤولية قيادة عملية التغيير الاجتماعي التي يحطم فيها الاصنام والطواغيت بصورة مشتركة، واصبح للصنمية والطغيان المستهدف امثلة ومفردات جديدة ذات بعد اجتماعي، مضافا الى بعدها العقائدي.

واصبح ـ ايضا ـ للعدل الاجتماعي واقامته بين الناس وضوح اكبر.

وبهذا اصبحت الامامة ضرورة مستمرة وباقية بعد انقطاع الوحي بالرسالة وتمامها وخاتميتها؛ لبقاء هذه الاهداف ووضوحها.

واتضح بذلك ـ ايضا ـ موقع عقيدة الدار الآخرة من ناحية، وتأثيرها في بناء الانسان للمجتمع الانساني الصالح، حيث يلاحظ انه لم تطرح قضية اليوم الآخر بهذه السعة والتفصيل والنتائج والآثار في الرسالات السابقة.

العنصر الثاني ـ المبادىء والقيم التوحيدية

لايخفى ان المبادىء والقيم التوحيدية والاخلاق الالهية تمثل القاعدة الاساسية التي يقوم عليها المجتمع الانساني بعد العقيدة في الرسالة الاسلامية، ولذلك جاء الحديث في القرآن الكريم عن التزكية والتطهير في عدة مواضع، منها: **«خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها...»**[10]، وجاء الحديث ـ ايضا ـ عن التعليم للكتاب والحكمة: **«هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آيته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلل مبين»**[11]، حيث نرى في هذه الآية ان التعليم للحكمة جاء بعد التزكية والى جانب التعليم للكتاب، واحد المعالم الواضحة للحكمة هو الاخلاق.

وقد ورد عن رسول الله (ص) قوله: (انما بُعثتُ لأتمِمَ مكارم الاخلاق).[12]

وتكامل الانسان في حياته الدنيوية والاخروية انما يتحقق من خلال الاخلاق الفاضلة، فهي اساس للشريعة، بمعنى: انها تكون منطلقا لها، كما انها هي هدف للشريعة يراد تحقيقه من خلالها.

وقد امتازت الرسالة الاسلامية على الرسالات الاخرى بتأكيد هذا الجانب بصورة واضحة، لانه احد اهم ظواهر مرحلة الاختلاف في الدين هو الاختلال في الميزان الاخلاقي للجماعات الدينية، كما عرفنا ذلك في دراستنا لمرحلة الاختلاف في الدين.

ويمكن ان نلاحظ هذا التأكيد للقيم والاخلاق في تأكيد القيم والمباديء التالية:

١ ـ عبادة الله تعالى، وامكان تحويل جميع تفاصيل حياة الانسان وسلوكه الى التعبير عن هذه العبادة وادخال قصد القربة فيها.

مضافا الى ذلك ما وضعه الاسلام من تصميم للشعائر العبادية المحضة ومراسيمها العامة، الذي لانجد نظيرا لها في اي رسالة الهية.

اضف الى ذلك ما يذكره القرآن الكريم من مشهد عبادة جميع الكون لله تعالى وتسبيح السمٰوات والارض وما فيهن لله عز وجل: **«تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا»**.(١٣)

وهذه العبادة تعبر عن اتجاه الانسان للتخلق بأخلاق الله تعالى (المثل الاعلى المطلق) والمصير اليه في حركة قائمة مستمرة وبصورة عميقة وشاملة، يتحرك فيها الانسان بكل تفاصيل حياته وبصورة يومية.(١٤)

٢ ـ التقوى، وهي: مبدأ تقوية وتنمية الوازع الداخلي في الانسان للاستقامة على جادة الشرع والعمل بماامر الله تعالى والترك لما نهى عنه، بصورة يكون فيها الانسان مسؤولاً عن عمله امام الله تعالى المطلع على جميع الخفايا والسرائر، وقد يعبر عنها: بـ(العدالة)، وهي تشكل ـ كما ذكرنا ـ ضمانة من اهم الضمانات الاجرائية في السلوك الفردي الاجتماعي للانسان.

وقد تم التأكيد عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بدرجة عالية، سواء من حيث الكم وذكرها في كل الاحوال والمناسبات، او من حيث الاهمية وما يترتب عليها من نتائج وآثار: (ان خير الزاد التقوى).

وهـذه التقوى من اهم المبادىء للوحدة، لانها تقوى لله الواحد، فهي ذات اتجاه واحد.

٣ ـ تقوية الارادة الانسانية والعـزم على انجـاز العمل والقيـام بـه، وذلك من خلال منهج جهاد النفس (الجهاد الاكبر) الذي يجعل الانسان قادرا على مواجهة مختلف الضغـوط الـداخلية كالشهـوات والميـول وطغيانهـا المتمثل بالهـوى، وكذلك مواجهة الضغوط الخارجية كالارهاب والقمع الذي يمارسه الطغاة.

مضـافـا الى قدرته على انجاز الاعمال الصعبة والبعيدة الامد، لان التغييرات الاجتمـاعية لاتحصل ـ عـادة ـ بصـورة سريعة ودفعية، وانمـا تتحقق بصـورة تدريجية ولوقت طويل نسبيا.

ويتكـامل مبـدأ تقوية الارادة الانسانية، مع مبـدأ التقـوى في تحقيق النتـائج والاهداف الاجتماعية الكبيرة من ناحيتين:

احـداهمـا: ان قـوة الارادة تشكل ضمانة لتحقيق التقـوى والالتزام بالاحكام الشرعية والاوامر والنواهي الالهية.

ثانيهمـا: ان انسجـام الارادة الانسانية، مع التقـوى والارادة التشريعية الالهية تستلـزم التأثيـر في الكـون المحيط بالانسان ونزول النصر الالهي، وتنزل الملائكة وجنـود السماوات والارض، الى جانب حركة الانسان الاجتماعية والفردية،[١٥]، كمـا نصت على ذلك الآيـات الشريفة، منهـا قولـه تعالى: **«ولـو ان اهل القرى آمنوا واتقـوا لفتحنـا عليهم بركٰت من السمـاء والارض ولكن كذبـوا فـأخذنٰهم بمـا كانـوا يكسبـون»**.[١٦]، وقوله تعالى: **«ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملئكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون»**.[١٧].

وبذلك تصبح الارادة الانسانية ذات الاتجاهات المتعددة ـ والتي تؤدي الى الصراع عادة ـ عاملا للتوحيد، عندما تكون منسجمة مع الارادة الالهية التشريعية.

وقـد اكـدت الـرسـالة الاسلامية على هذا المبدأ ـ ايضا ـ في نصوص كثيرة وممارسات عديدة تحدثت عن الصبر، والاستقامة، والعزم، والثبات، والجهاد...

٤ ـ العلم والمعـرفة والعقل التي تمثل الطريق للهـداية الى اللـه تعالى (المثل

الاعلى)، وتشخيص الحكم الالهي الواحد والموقف الشرعي الواحد والمصالح والمفاسد الواقعية الواحدة، والموازنة بينها، وتحصن الانسان من الحيرة والضلال والانحراف والاختلاف.

٥ ـ الوفاء بالعهد والميثاق، وهو مما ينمي في الانسان الشعور بالمسؤولية تجاه الله تعالى والطبيعة، واخيه الانسان في اطار تأكيد الالتزامات الاولية التي يكون الانسان ملتزما بها من خلال وجوب الطاعة لله تعالى ولرسوله ولأولي الامر، وكذلك في اطار الالتزامات الثانوية التي يلزم بها الانسان نفسه من خلال العهود والمواثيق والعقود والايقاعات، بحيث ينظم بذلك حياته وعلاقاته في المجتمع ويحقق الوحدة والانسجام.

وهذا الوفاء وان كان يمثل احد مفردات تربية الارادة الانسانية وتقويتها، لكنه احد المبادىء المهمة التي اكدها القرآن الكريم والاسلام الحنيف لمعالجة الاختلال في توازن الوحدة الاجتماعية في مرحلة الاختلاف في الدين، حيث يكون الانسجام مع العهد والميثاق الالهي.

ولذا نشاهد الخطاب المؤكد في هذا المجال تجاه بني اسرائيل سلبا وايجاباً، وهم يعبرون عن المصداق الامثل لمرحلة الاختلاف في الدين.

كما انه يعالج الاختلال في توازن الوحدة الاجتماعية عند تضارب اتجاه الارادات الانسانية، فيحقق الانسجام بينها من خلال العهود والمواثيق بين الناس او مع ولي الامر.

٦ ـ مبدأ الحق والعدل اللذين يمثلان الركنين الاساسيين للاحكام الشرعية، لانها تابعة في تفاصيلها الى الحق والعدل.

وبذلك اوجد الاسلام التكامل والتوازن في هذا الجانب من الوحدة، فلم يترك القيم والمثل تتسم بالغموض، بل حددها في صيغ معينة تهدي اليها وهي: الشريعة، كما ان الشريعة لم تترك ضمن حدود وصيغ جامدة وقيود حديدية، بل فسرت القيم والمبادىء فاصبحت القيم والمبادىء اتجاهات توجه مسار الصيغ الشرعية وتوضحها وتفسرها للتحرك معها.

فالشريعة الاسلامية تكمل دور القيم في الحياة الانسانية، من خلال ايجاد الصيغة الواحدة المنظمة للحياة والقيم، تفسر وتوضح مسار الشريعة وتعطيها المرونة الكافية لمعالجة الاختلاف في كل زمان ومكان.

العنصر الثالث ـ الشريعة الواحدة الالهية

نجد الرسالات الالهية، ومنها: الرسالة الخاتمة اهتمت بالتشريع، ولكن كان هذا الاهتمام في الرسالة الخاتمة اكثر تفصيلا ووضوحا، وذلك لتحقيق وحدة الناس ومعالجة الاختلاف الذي يعيشه المجتمع الانساني في هذه المرحلة، بسبب تجاوز القيم والاختلاف في تفسيرها، فكان نزول الوحي الالهي بالشريعة التي تنظم حركة الانسان وعلاقته بالطبيعة واخيه الانسان معا، كما تعمل على حل المشاكل والاختلافات التي تطرأ على هذه الحركة ايضا.

ولكن تميزت الشريعة الاسلامية بمجموعة من المميزات الاساسية:

الاول: الوضوح في التشريع الاسلامي، حيث اقترنت التشريعات الاسلامية بعدة عوامل رئيسية تمنحها هذا الوضوح:

أ ـ هو بيان وشرح الرسول الاعظم(ص) شخصيا لها، مع تكوين (مشروع) جماعة المتفقهين والمبلغين لها، لتوضيحها وشرحها، كما يشير القرآن الكريم الى ذلك: **«وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون»**(١٨)

ب ـ هو التطبيق والتجربة الخارجية لها في زمن صاحب الرسالة، حيث اتيحت للرسول الاعظم(ص) فرصة واسعة نسبياً، لتطبيق الاحكام الشرعية في المجتمع الاسلامي، ويمكن ان نلحظ ذلك فقهيا في الكثير من اصول وكليات الفقه في العبادات والمعاملات التي يتفق عليها المسلمون؛ بالرغم مما تعرض له الفقه الاسلامي من مشكلات عديدة.

ج ـ تشخيص المرجعية الدينية الفقهية في الكتاب الكريم والعترة الطاهرة، واختصاص علي(ع) من بين اصحاب رسول الله(ص) بالعلم والمعرفة والقضاء،

وهـذه المـرجعية الدينية ـ المتمثلة بالامـام علي(ع) ـ واولاده عليهم السلام من بعده، بحيث يتم الرجوع اليهم في حل المشكلات لفهم الشريعة.(١٩)

الثاني: الشمـول والسعة في تنـاول الشريعة لمختلف ابعـاد الحيـاة الانسانية، بحيث لانجد هذه السعة والشمول في اي من الرسالات الالهية السابقة، فقد تناول هذا الشمول السلوك الفردي والجماعي للانسان، سواء في عبادته او معاملاته او مأكلـه ومشربه، ملبسه ومسكنه، وكل اشكال سلوكه، او في علاقته مع الطبيعة، او اخيـه الانسـان الآخـر، وسـواء في الحكم او السيـاسية او الاقتصـاد او الاسرة او المجتمع، الى غير ذلك مما يعرفه الانسان.

وقد تم تحقيق هذا الشمول:

اولا: ببيان الاحكام التفصيلية في القضايا المنظورة.

وثانيـاً: بيـان القواعد والاصول العامة، التي يمكن ان يرجع اليها الانسان عند الحاجة في القضايا غير المنظورة.

وثـالثـاً: بيـان الاحكام على مستوى الواجب والحرام والمكروه والمستحب والمباح.

ورابعـاً: بيـان الاحكـام على مستـوى تـزاحم المصـالح او الارادات وبيـان الاولويات والحالات الاستثنائية كالضرر والعسر والحرج...

الثـالث: المـرونة في الشريعة، بحيث تكـون قـادرة على الاستمـرار ومـواكبة الظروف المتطورة والمستجدات في الحياة الانسانية، من خلال مراعاة الحاجات الثابتة في الحيـاة الانسانية التي تـوضع لهـا الاحكام الثابتة والحاجات المتغيرة او المتحـركة في حيـاة الانسـان، حيث تم تغطيتهـا تشريعيـاً بمراعاة هذا التغيير في موضـوعـات الاحكـام وربطهـا بعللهـا ومصالحهـا؛ وتشخيص العناوين الثانوية (الاستثنـائية الطـارئة) وتقديمهـا، ومنح الصلاحيات المطلوبة لولي الامر في اطار القواعد العامة واتجاهات الحكم الشرعي ومقاصده.

الرابع: وضع الضمانات الاجرائية والتنفيذية، التي يمكن تلخيصها:

اولاً: تطويـر وتنمية الوازع الذاتي الداخلي للانسان المسلم، من خلال تأكيد

مبـدأ (التقـوى) والورع عن محارم الله وتقوية الارادة الانسانية عن طريق الجهاد الاكبر وضبط النفس والسيطرة على طغيان الشهوات والميول.

ثانيـاً: تأكيـد مبـدأ التعويض الالهي للبـذل والعطـاء والصبـر على الطـاعة واجتنـاب المعصية، وتحمل الجهـد والنصب في سبيل اللـه والآخرين، ومصلحة الجمـاعة، قـال تعـالى: **«من ذا الـذي يقـرض اللـه قرضـا حسنـا فيضعفه له اضعافا كثيرة...»**.(٢٠)

وكـذلك تأكيـد القيم والمبـادىء الاسـلامية التي تشكل ضمانة في الاجراء، وفي تشخيص اتجاهات الشريعة، وكذلك تفسير الحكم ومعرفة الحكمة فيه.

ثالثـا: بالـدولة والنظـام الاسـلامي، الذي سوف نتناول الحديث عنها بصورة مستقلة، لانها تمثل عنصرا مهما في تحقيق هذه الوحدة.

رابعـاً: في تأكيـد مبدأ رقابة الامة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر كمبدأ يمثل مسـؤولية عـامة، تتحملهـا الامة في مراقبة الحاكم من ناحية، ومراقبة السلوك للانسـان الآخر من ناحية ثانية، وسوف نتعرف على مزيد من التوضيح في البحث عن العنصر الرابع.

خامسـاً: الجهـاد الاصغـر الـذي يشمل القتـال ـ ايضـا ـ في بعض الحالات الخاصة المحددة فقهيا.

الوحدة ومبدأ الحق والعدل

لقـد عرفنـا ان مبدأ الحق والعدل يمثلان المحتوى الحقيقي للشريعة، لانهما يلخصـان القيم والمبـادىء الاسـلامية فيمـا يتعلق بالحـركة الفردية والاجتماعية للانسان، كما انهما يمثلان طريق التكامل الانساني الفردي والجماعي، والوصول الى الله (المثل الاعلى)، ونحتاج ان نقف عندهما قليلا، لنتبين دورهما في تحقيق الوحدة الاسلامية.

الحق

اما الحق، فان الله سبحانه و تعالى هو الحق المطلق، ولايصدر منه الا الحق، وهو يمثل الحقيقة الثابتة في مسيرة الكون والحياة، وهو امر واحد قائم في الواقع المنفصل عن رغبات الانسان وميوله، ويكشف الحكم الشرعي هذا الحق الذي يتطابق مع مايضر الانسان وينفعه وما يصلح حياته ويفسدها، فيكون الحكم الشرعي طريق الاثبات للحق، على قاعدة (مطابقة الاحكام الشرعية للمصالح والمفاسد الواقعية)، ويكون ربط سلوك الانسان بالقوانين والتشريعات الصادرة منه سبحانه وتعالى سببا لتحقيق مصالح الانسان نفسه، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة في آيات عدة، منها: قوله تعالى: **«انا انزلنا اليك الكتٰب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله...»**[٢١] وذلك من اجل ان يكون الحكم بين الناس وتنظيم علاقاتهم وفق الحق الذي يعلمه الله تعالى لابما يراه الناس او يحبونه، لانهم قد يرون ويحبون لأنفسهم ما يضرهم ولاينفعهم، قال تعالى: **«... وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم...»**[٢٢].

كمااشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة في مجمل حركة الكون - ايضا - قال تعالى: **«ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن...»**[٢٣]

وقد تم تأكيددور الحق في حل الاختلاف بنوعيه:

في قوله تعالى: **«كان الناس امة وحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتٰب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم»**.[٢٤]، فقد دلت هذه الآية الكريمة على ان الكتاب الذي جاء بالحق، انما جاء ليعالج ظاهرة الاختلاف التي وجدت في المجتمع البشري، سواء الاختلاف البدائي أو الاختلاف في الدين، وذلك لان الحق امر واحد، بخلاف الهوى والميول والمصالح والمنافع الخاصة، فانها متعددة ومختلفة، كما انها لاتتطابق دائما مع مصالح الناس عامة، ومن اجل ذلك كان كل ماهو خلاف الحق باطلا لايبقى ولا يصلح ولاينفع.

وقد عبر القرآن الكريم عن الاختلاف في الدين المنهي عنه بلبس الحق بالباطل، قال تعالى: **«ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون»**.(٢٥)

القسط والعدل

واما القسط والعدل، فقد أُنزلت الشرائع الالهية لتنظيم علاقات الانسان بينه وبين اخيه الانسان، وبينه وبين الطبيعة في اطار العلاقة بالله تعالى وعبوديته. ولكن هذه العلاقة قد تتعرض لمشكلة الاختلاف بسبب تضارب المصالح والمنافع بين الناس وارادتهم ورغباتهم، فكان ايجاد التوازن في هذه العلاقة هدفا من اهداف الشريعة الاسلامية، ومبدأ من مبادىء الرسالة الاسلامية.

وقد تم تاكيد هذا المبدأ واهميته بصورة خاصة، من خلال تأكيد مفاهيم القسط والعدل، وانه هدف الرسالات الالهية: **«لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط...»**(٢٦). **«... وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين»**.(٢٧) **«ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي...»**(٢٨).

او من خلال التشريع الذي يحفظ هذا الهدف ويحقق هذا التوازن في الواقع الاجتماعي.

او من خلال توضيح سعة دائرة العدل والقسط في حياة الانسان، فلم يلحظ في ذلك مجرد علاقات الانسان مع اخيه الانسان ـ كما هو الحال في التشريعات الوضعية عادة ـ بل لاحظ ذلك ـ في علاقته مع الله تعالى، ومع نفسه، ومع الطبيعة ايضا، حيث قد يكون الانسان متجاوزا للحدود مع الله تعالى، فيكون ذلك من اعظم الظلم، لقوله تعالى: **«... يبنيّ لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم»**.(٢٩) وقد يكون الانسان ظالما لنفسه عندمايتجاوز في سلوكه حدود مصالحه الحقيقية دون مبالاة وانسجاما مع الميول والشهوات، وقد يكون ظالما للكون والطبيعة التي حوله، او ظالما لماله عندمايتجاوز في تصرفاته حدود الحق، مثل: الاتلاف والاسراف..الخ.

وهـذا المبـدأ يتكـامل مع مبـدأ الحق الـذي يضمن المصالح العامة والخاصة للانسان في حركته الفردية والاجتماعية.

كمـا يتكامل مع مبدأ التعويض في الدار الآخرة، عندما يقتضي حفظ التوازن والعـدل والقسط في الحياة الاجتماعية، ان يقوم الفرد الانساني بتضحيات خاصة ـ من اجل الآخرين، او من اجل المجتمع ـ بالنفس، او المال، او الجاه والاعتبار.

الضمانات الاجرائية

وقد امتازت الرسالة الخاتمة في مجال القيم والمباديء ـ مضافا الى الوضوح والسعة والشمـول والتـأكيـد ـ بـوضع الضمانـات الاجرائية في هذا المجال التي يمكن ان نلخصها بالامور التالية:

الاول ـ القـرآن الكريم: الذي بقي محفوظا بنصه الكامل المقدس، وما تم من تأكيد اشاعة ثقافته بين الامة، حيث لم يبق محصورا في الطبقة الخاصة من الاحبار والـرهبـان، وذلك من خـلال تأكيـد قدسيتـه واشـاعة تلاوتـه وحفظـه وفهمـه وتدارسه.. كما ذكرنا.

الثاني ـ القدوة الصالحة: المتمثلة بمصاديق عديدة:

اولاً: (اهل البيت(ع)) الـذين اذهب اللـه عنهم الـرجس وطهـرهم تطهيـرا، حيث كانـوا يمثلـون التجسيـد الكامل العملي لهذه القيم والمبادىء: «**... انما يريد اللـه ليـذهب عنكم الـرجس اهل البيت ويطهـركم تطهيـرا**»[٣٠]، وعلى رأس اهل البيت(ع) رسـول الله(ص) الذي وضعه الله تعالى اسوة للمسلمين: «**لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**»[٣١].

وكـان احـد الابعـاد المهمة في الـرسـالة الخاتمة تأكيد النبي(ص) على اهل البيت(ع) الذي اريد منه هذه القدوة العملية في حياة المسلمين، وذلك مضافا الى بعدي الامامة والمرجعية الفكرية فيهم اللذين اشرنا اليهما سابقا.

ومن الـواضح ان القـدوة الحية المعاصـرة التي يشاهدها الانسان في حياته ـ مثل اهل البيت(ع) ـ اكثـر تأثيـرا من القـدوة الغـائبة التي يسمع عنها الانسان من

خلال المواقف المحدودة.

ثانيـا: الاقتداء بالانبياء(ع) السابقين، مثل: ابراهيم(ع)، او من سبقه، او لحقه منهم، كمـا اكـد على ذلك القـرآن الكريم، في قوله تعالى: **«اولئك الذين هدى الله فبهدٰهم اقتده قل لا اسئلكم عليه اجرا ان هو الا ذكرى للعالمين»**.(٣٢)، حيث يلاحظ ان هـذه الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن الانبياء(ع)، قبل ابراهيم(ع)، وبعده.

ثالثاً: الاقتداء بالرجال الصالحين من الصحابة الخيرين السابقين من المهاجرين والانصـار، او التابعين لهم باحسـان من العلمـاء والفقهـاء والعبّـاد والزهّاد، الذين توارثوا العلم والاخلاق والصلاح جيلا بعد جيل.

الثـالث ـ الضمانـات الاخـرى: التي وضعت لتطبيق الشريعة الاسـلامية التي ذكرناها سابقا، مثل: النظام الاسلامي الذي يقوم على اساس القيم والمثل، ومثل: الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنمية الوازع الديني، وغيرها من الضمانات.

الهوامش

(١) الشورى: ١٣.

(٢) هود: ١١٨ – ١١٩.

(٣) النور: ٥٥.

(٤) الانعام: ١٥٣.

(٥) الشورى: ١٣.

(٦) الحجر: ٩.

(٧) الاحزاب: ٣٣.

(٨) صحيح الترمذي ٥:٦٦٣، رقم: ٣٧٨٨، وغيره. وفي هذا الحديث بحث من جوانب مهمة حيث ان حديث الثقلين هو من افضل ما روي من احاديث في هذا المجال، من حيث الدلالة والسند والوثاقة حتى بلغ حدالتواتر على ماذكر بشأنه بعض العلماء والمحققين.

راجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ٢:٥٢–٦٣.

(٩) راجع كتابنا علوم القرآن، لتوضيح وتفسير والاستدلال على هذه المرجعية الدينية.

(١٠) التوبة: ١٠٣.

(١١) الجمعة: ٢.

(١٢) مجمع البيان ١٠:٣٣٣، وعنه بحار الانوار ١٦:٢١٠.

(١٣) الاسراء: ٤٤.

(١٤) يمكن مراجعة بحث العبادات والشعائر، من كتابنا دور اهل البيت(ع) في بناء الجماعة الصالحة، الجزء الثاني، لنتعرف على صورة اجمالية للعمق والشمول في العبادة الاسلامية.

(١٥) وقد تناولنا هذا التكامل بين هذين المبدأين في الابحاث السابقة.

(١٦) الاعراف: ٩٦.

(١٧) فصلت: ٣٠.

(١٨) التوبة: ١٢٢.

(١٩) هذا الموضوع تناوله علماؤنا الاعلام(قدس سرهم) بالبحث التفصيلي وتناولناه – ايضا –

في بعض المحاضرات، وكذلك في علوم القرآن: ٢٥٥ – ٢٦٢.

(٢٠) البقرة: ٢٤٥.

(٢١) النساء: ١٠٥.

(٢٢) البقرة: ٢١٦.

(٢٣) المؤمنون: ٧١.

(٢٤) البقرة: ٢١٣.

(٢٥) البقرة: ٤٢.

(٢٦) الحديد: ٢٥.

(٢٧) المائدة: ٤٢.

(٢٨) النحل: ٩٠.

(٢٩) لقمان: ١٣.

(٣٠) الاحزاب: ٣٣.

(٣١) الاحزاب: ٢١.

(٣٢) الانعام: ٩٠.